(٣) د. طه حسين
انتظر العبور العظيم لكى يرحل مطمئنا

اذا

كان عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين.. قد كتب لنا معظم ملامح حياته الخاصة. ومشوار هذه الحياة وخروجه من بلدته "الكيلو" بصعيد مصر.. فى كتابه العظيم "الأيام"، وإذا كان الدكتور محمد حسن الزيات زوج ابنة العميد السيدة أمينة قد كتب لنا هو الآخر عن الدكتور طه حسين.. فيما أسماه "ما بعد الأيام"، حيث استكمل لنا مشوار حياة العميد حتى بعد رحيله، فإننا سوف نكتب عن الدكتور طه حسين فى هذه الأوراق.. عما بعد هذه الأيام من قبل رحيله.. وذلك وفق منهجنا العام الذى اخترناه للحديث عن عظماء الفكر والأدب من العمالقة الذين رحلوا عن عالمنا.. وكانت فى حياتهم خلال الأيام الأخيرة التى سبقت الرحيل.. حكايات وحكايات تستحق أن تروى!

وكما مر علينا وعليكم من قبل فسوف تتسم كتاباتنا عن عميد الأدب العربى . بالطابع الإنسانى.. الذى قد لا يلتفت إليه

أحد غيرنا.. من واقع إحساسنا بعظمة هذا الرجل الذى اتسمت حياته كلها بالتحدى.. وكان من أعظمها.. قهره لظلام العين برؤية القلب!.

وأكثر من ذلك، كان الدكتور طه حسين مثالا لقدرات الإنسان الذى خلقه الله.. وصوره.. ثم تركه للعيش فوق هذه الأرض بما يملك من إمكانيات وقدرات هُيأت لكل منا حسب ما أعطاه الله من مقومات نفسية وجسدية وعقلية.

ولو استعرضنا تاريخ الأدب العربى.. لمعرفة موقع العميد فوق خريطته من واقع ما كان فيما يخص العجز، وفقدان البصر.. لوجدنا أنه يحتل المرتبة الثانية بعد الشاعر والمفكر العربى "أبى العلاء المعرى".. الذى اشتهر فى تاريخ الأدب العربى بلقب "رهين المحبسين"!

ومن بعد الدكتور طه حسين.. فتحت الأبواب على مصرعيها.. لاحتواء أصحاب العاهات.. الذين أثبتوا أنهم لا يقلون مقدرة وطموحا عن غيرهم من الأسوياء من أصحاب الأبصار السليمة.

وكأنما جاء العميد فى منتصف الطريق ليضىء لهؤلاء طريقهم بالعلم والفكر والمعرفة.. ناسفا بذلك السد الضخم الذى يقام من حول هؤلاء المعاقين، والذين كانوا يتحولون رغما عنهم إلى

مرضى.. يعيشون بعاهاتهم.. والعديد منهم كان يركن إلى هذا العيش الذى يؤدى فى نهايته إلى احتراف التسول مع اختلاف أساليبه.

من هنا تكمن عظمة طه حسين الذى رحل عن عالمنا فى اليوم الثامن والعشرين من عام ١٩٧٣.. عن عمر يناهز الرابعة والثمانين.. وقد استطاع أن يحجز له مكانا واسعا بين عظماء هذه الأوراق.

ولسنا فى حاجة لكى نعدد الفوائد التى حققها أصحاب عاهات الأبصار من وراء ما حققه الدكتور طه حسين بنفسه لنفسه وللآخرين.. ويكفيهم فى ذلك فخرا.. أن أصبح لهم عميدا ورائدا ومعلما.. علم العلم بلسانه وكلماته وأيضا بأفعاله.

* * *

ولسوف تتجلى لنا أكثر هالات عظمة هذا العميد.. كلما اقتربنا من الحديث عن حياته.. وذلك من قبل أن نقترب نفس المسافات من أيامه الأخيرة. إيمانا منا بأن عظمة الإنسان قد تولد معه.. وربما لصعوبة ظروف الحياة قد يتأخر ظهورها إلى حين. ولكن مع مرور الأيام يبدأ الإنسان العظيم.. فى حصد مآثر عظمته.. التى تفيض بالطبع على الآخرين وعلى كل من حوله

قبل أن تفيض عليه بذاته.. وأعماله فى مختلف ميادين الحياة هى التى تثبت وتظهر وتوضح للعين المجردة تلك الآفاق.

وبشكل عام فقد مر د.طه حسين فى حياته بالعديد من الصعوبات الصحية والاجتماعية.. ولولا إصراره وقوة إحساسه بإمكانياته وقدراته لاستسلم بالفعل لهذه الظروف. ولخسرنا عبقريا ومفكرا عظيما مثله.. ومن أخطر ما واجه طه حسين فى حياته إصابته بالعمى وهو فى سن السادسة من عمره.. وقد خلقه الله مبصرا مثل الأطفال من أقرانه من أهل قريته. وجاء ميلاد طه حسين فى إحدى قرى محافظة المنيا بصعيد مصر، والقرية التى ولد بها اسمها "الكيلو". وهى تبعد مسافة كيلو واحد من بلدة مغاغة.

وكان لطه حسين ثلاثة عشر أخوة.. وترتيبه بينهم كان السابع.. وبرغم هذا العدد الضخم فقد لاقى الطفل طه حسين رعاية خاصة ميزته ومكنته عن هؤلاء الأطفال.. وكان الأطفال فى هذه القرى على حد قوله: حين يشكون يهملون، فإذا التفتت إلى أحدهم أم، فهى تسقط من حسابها الطبيب مكتفية بعلم جاراتها وأشباههن فى الجهل.. والدكتور طه حسين يذكر لنا ذلك لأنه وهو صبى فقد بصره على يد حلاق القرية!

وكانت أمنية والده الشيخ حسين الموظف بشركة السكر أن يرى ابنه الشيخ طه قاضيا. أو من علماء الأزهر.. وقد عمل أبوه فعلا من أجل تحقيق تلك الأمنية فأرسله إلى القاهرة مخلفا وراءه الريف والثوب الفضفاض الذى كان يلبسه قبل أن يهبط القاهرة. وكانت حياة العميد منذ مقدمه إلى القاهرة شريطا حافلا بالكلمات والحركات والصور.. وهى تلك التى استعاض عنها برؤية النظر.. حيث نجح فى استخدام قلبه وعقله بدلا منه.!

ومع مرور الأيام اصطدم نور عقل العميد بما كان حادثا آنذاك بالأزهر.. إلى جانب المضايقات التى نالها من جراء إصابته بالعمى. فقرر الفرار بهدا العقل والتحرر مما لاقاه.. عندئذ اتجه إلى الجامعة المصرية ليكمل من خلالها مشوار حياته الفكرية.. هذه الخطوة فى حد ذاتها قد أفاضت عليه وعلينا.. إذ كانت البداية الحقيقية لانطلاقه فى رحاب العلم والفكر والسياسة أيضا.

وقد خدمه الحظ كثيرا ففى عام ١٩٠٨ أُنشئت الجامعة الأهلية وقد رأى فيها الفتى حلمه.. وعلى إثر تلك الخطوة تحولت معظم مجريات حياته أيضا. فانتقل للإقامة فى منزل جديد بدرب الجماميز.. كما اتخذ لنفسه خا-ما جديدا.. كان دليله نحو

الأزهر ونحو الجامعة، وقد استطاع فى الفترة نفسها أن يجمع بين الدراسة فى الجامعتين الأزهرية والأهلية!

وأخذ حلمه فى العلم يقترب برغم عجزه.. فحصل فى عام ١٩١٤ على رسالة الدكتوراه "فى ذكرى أبى العلاء".. كما اختارته الجامعة لإيفاده فى بعثة إلى فرنسا وهكذا كما تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد: غدا الحلم حقيقة تبهر صاحبها والناس.

ومن أطرف ما يقال فى هذا السياق.. ووفق ما أثبتته وقائع الجامعة القديمة.. أن الطالب طه حسين قد تقدم بالتماس إلى الجامعة لكى تقرضه ١٥ جنيها ليشترى بجزء منها ملابس أفرنجية بدلا من زيه الأزهرى.. ويسدد بالباقى أجرة الغرفة التى كان يسكنها، استعدادا للسفر فى البعثة إلى باريس فصرفت له.

كما صرفت له أيضا المكافأة التى وقفها الدكتور محمد علوى باشا ابتداء من عام ١٩١٣ على روح ابنه المرحوم حسين علوى، وقدرها عشرة جنيهات لمن يستحق من طلاب الجامعة المصرية عن سنتى (١٩١٣ــ ١٩١٤) نظرا لتفوقه فى الدراسة ونيله إجازة العالمية فى قسم الآداب بدرجات عالية جدا.

وبدءا من عام ١٩٢٦.. دخل طه حسين.. دائرة الضوء من أوسع الأبواب حين ألف كتابا بعنوان "عن الشعر الجاهلى". وعلى إثر ما صاحبه من ضجة إعلامية وسياسية.. اضطر لاستبدال عنوانه تحت اسم "فى الأدب الجاهلى".

وفى العام نفسه كان قد تم تعيينه أستاذا للآداب بالجامعة.. ثم تم إسناد كرسى الأدب له، وفى عام ١٩٢٨ تم انتخابه عميدا لكلية الآداب. وقد أثار هذا التعيين أزمة سياسية.. أدت إلى تقديم استقالته..إلا إنه سرعان ما عاد عميدا لنفس الكلية. مرة أخرى فى عام ١٩٣٠، برغم أن رئيس الحكومة آنذاك، كان إسماعيل صدقى لذى طلب منه الاستقالة مرة أخرى لتولى رئاسة تحرير جريدة "الشعب".. ورفض طه حسين، وآثر العمادة على الصحافة.

وتؤكد الدكتورة نعمات أحمد فؤاد مرة أخرى.. أنه ومنذ ذلك التاريخ أصبح الدكتور طه حسين طرف أساسيا فى العديد من الأزمات السياسية.. التى كان سببها فى تصوره الصحيح الحق والعلم.

وخرج الدكتور طه حسين من هذه الأزمات خاسرا حيث أحيل إلى التقاعد من الجامعة فى عام ١٩٣٢ بقرار من إسماعيل صدقى. وبناء على توصية من مجلس النواب!.. وكانت فرصة ينتظرها

حيث اقترب العميد أكثر من عالم العمادة.. لكنه أعيد للجامعة فى عام ١٩٣٤ وصل بها عميدا حتى عام ١٩٤٢. وفى عام ١٩٥٠ عين لأول مرة وزيرا للمعارف وكان من قبل تلك الخطوة.. يعمل مستشارا فنيا فى نفس الوزارة حتى أحيل للتقاعد فى العام الذى اختير فيه وزيرا.

وفور توليه هذا المنصب السياسى قرر اعتماد مجانية التعليم انطلاقا من صيحته المدوية.. إن التعليم لابد وأن يكون كالماء والهواء.. وكان الدكتور طه حسين فى هذه الفترة قد بلغ من عمره ٦١ عاما.

ولا شك أنه فى مثل هذه السن المتقدمة.. وبعد هذا الكفاح العظيم.. فى مجال الفكر والسياسة.. كان لابد من مشاكل يواجهها العميد فى حياته الصحية وفى مسيرة شيخوخته بشكل خاص، ولا ننسى أن نقول فى هذا السياق إن طه حسين قد ذاق مرارة الأمراض منذ نعومة أظفاره وهى التى أسفرت كما نعلم عن انتقاله من عالم الإبصار إلى عالم الإظلام!

أضف إلى ذلك أنه كلما كانت الأيام تزحف فى اتجاه مسيرة حياته كلما كان يقترب بقوة من مشاكل الشيخوخة حيث الأمراض التى قال عنها يوما لتلميذه كمال الملاخ: "أما المرض،

فقد لقيت منه شرا كثيرا، ولكنى أتعزى عن هذا الشر. بما يؤثر من أن الله يكفر عن المرء بعض سيئاته ويغفر له بعض ذنوبه بمقدار ما يؤذيه المرض". ولما بلغ التاسعة والسبعين من العمر قال لأصدقائه: "إنى لا أود شيئا من الدنيا لأن الحياة إنما هى -كما قال الله عز وجل- "لعب ولهو وزينة".

ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن أيام عميد الأدب العربى الأخيرة قد بدأت مع مطلع عام ١٩٦١.. وكان وقتها قد بلغ من العمر حوالى الثانية والسبعين عندما أجريت له جراحة عاجلة.. وقد ذكر لنا ذلك الدكتور محمد حسن الزيات فى قوله حين تحدث عن ذكرياته مع العميد فيما كتبه عما بعد الأيام "فى حديقة رامتان وفى فبراير عام ١٩٦١.. كان الدكتور محمد كامل حسين يخرج من المنزل إلى الحديقة مع طه حسين بعد أن قام بفحصه فحصا دقيقا.. وطه حسين يسير متعبا وكامل حسين صامت قليلا ولكنه متمالك لنفسه، عندئذ قال الدكتور كامل حسين وهو يتحدث بجد عن هذه المرة لابد من نقل الدكتور إلى المستشفى حالا، العمود الفقرى يحتاج إلى عملية ضرورية قطعا وإلا واجهنا خطر الشلل، ومن حسن الحظ عندنا الآن أستاذ من أساتذة هذه العملية فى العالم، جراح أعصاب سويدى اسمه "أوليفا كرونا" يجرى

عملياته فى مستشفى الطيران، المستشفى الفرنسى سابقا. وسيكون معنا كل من يلزم من الأطباء.. مسئوليتكم كبيرة والسرعة لازمة.

وتدخلت ابنة العميد أمينة قائلة: متى؟.. قال: الطبيب حالا.. وفى مستشفى الطيران استغرقت العملية ساعتين ولم يشارك الدكتور "أوليفا كرونا" سوى الدكتور البنهاوى والطاقم الذى حضر مع الدكتور السويدى.

وفى القاعة الخارجية للمستشفى كان هناك عدد كبير من الأطباء والأصدقاء والأساتذة والطلاب ينتظرون فى سكون، مظاهر متعددة للقلق على المريض لمحبته والتعلق به.

وفى هذه اللحظات يخرج الدكتور البنهاوى مساعد "أوليفا كرونا" من العملية ليطمئن الموجودين، حيث أبلغنا أن الدكتور العميد نقل لغرفة الإنعاش.

ويتضح من سياق بقية ما رواه الدكتور الزيات أن أسرة العميد خاصة زوجته السيدة سوزان.. كانت تخشى على زوجها من الإصابة بالشلل.. حيث لا يستطيع بعدها السير!

* * *

ومنذ ذلك التاريخ لم يتوقف زحف المرض فى اتجاه صحة الدكتور طه حسين، إذ ظلت صحته فى تدهور مستمر.. وقد آلت

الصحف آنذاك على نفسها متابعة هذه الحالة. فكتبت جريدة الأهرام فى عام ١٩٦٣ تقول: إن العميد أغمى عليه مرتين فى يوم واحد.. حيث أصيب بدوار أعقبه حالة إغماء أثناء وجوده فى مجمع اللغة العربية. وانتقل إلى إسعافه فى هذه اللحظات الدكتور أحمد عمار عميد كلية الطب السابق ود.محمد سليمان مدير الجامعة الأزهرية.. والغريب كما قالت الصحيفة فى ذات الموضوع أن الدكتور طه حسين الذى كان يبلغ من العمر ٧٤ عاما أفاق من الدوار بعض الوقت حتى عاودته ظاهرة الإغماء مرة أخرى. وظل العميد بمجمع اللغة العربية حتى عاد إلى منزله حيث تحسنت صحته.

وبعد شهر من هذه الواقعة كتبت جريدة الأخبار تقول أيضا إن أزمات المرض بدأت تعاود الدكتور طه حسين باستمرار وأنه اضطر لذلك أن يعقد عدة اجتماعات أدبية فى فيلته "رامتان" وهو نائم فى سريره!

وأضافت الصحيفة: إن سكرتير الدكتور طه حسين أبلغ كل الزائرين أنه ممنوع من مقابلة أى زائر لأنه لم يغادر الفراش منذ منتصف سبتمبر الماضى ومنذ أن خرج من المستشفى بعد إجراء العملية الجراحية فى العمود الفقرى وأنه يقضى يومه مستلقيا على السرير فى حجرته بالطابق الأول.

وفى بعض الأيام التى كان يشعر فيها بالانتعاش ينزل إلى حديقة فيلته ليستجم مدة ساعة أو نصف ساعة. وفى هذه اللحظات يلازمه فريد شحاتة سكرتيره وسائقه الخاص حسين مصطفى شبانة الذى يرتبط بالدكتور العميد منذ عام ١٩٤٤.

وفى الفترة ذاتها.. عانى عميد الأدب العربى بالإضافة إلى أمراض العمود الفقرى وأمراض الشيخوخة.. أيضا أمراض فراق الأحبة من زملاء الأدب والنقد.. حيث زاده رحيل صديقه العقاد فى عام ١٩٦٤ ألما فوق آلامه الكثيرة.

ويذكر لنا الدكتور الزيات بعضا من هذه الآلام التى اعتصرت قلب العميد على فراق أحبابه فقال: "كان الدكتور العميد يتحدث فى التليفون إلى منزل العقاد.. فأبلغوه بخبر وفاته.. عندئذ نادى على سكرتيره الخاص ليملى عليه مقالا عن العقاد لينشر فى جريدة الجمهورية.

وبعد أن انتهى من الإملاء طلب من السكرتير أن يتركه وحده ولا يدخل عليه أحد.. إلا أن زوجته السيدة سوزان دخلت عليه بعد قليل، وتساءلت عن السبب فيما قاله سكرتيره.. قال العميد: "نموت قليلا عندما يغادرنا فى هذه الدنيا الأهل والأصدقاء. لقد كنت بالأمس أذكر الأعضاء العشرة الذين دخلت معهم المجمع

عام ١٩٤٠. لقد ودعنا الآن لطفى وهيكل وعبد العزيز فهمى ومصطفى عبد الرازق. كما ودعنا على إبراهيم والمراغى وعبد القادر حمزة وأحمد أمين. والآن.. العقاد. ولم يبق على قيد الحياة من الزملاء العشرة سواى"!

وفى فقرة أخرى مما ذكره الدكتور الزيات. قال: يبدو إن الألم الشديد الذى أصاب الدكتور العميد حين عرف أنهم استغنوا عنه كصحفى وكاتب وكرئيس تحرير جريدة الجمهورية فى الفترة نفسها قد ازداد.. والدكتور العميد يعبر عن ذلك بقوله ردا على سؤاله حول سبب توقفه عن الكتابة: "منذ فترة استغنوا عن خدماتى يا سيدى. علمت بذلك من خطاب وصلنى بالبريد وقد جاء فيه أن الجريدة تستغنى عن خدمات عدد من المحررين ومنهم طه حسين!"[1]

وفى عام ١٩٦٥ أهدت جامعة بالرمو بإيطاليا درجة الدكتوراه الفخرية للدكتور طه حسين. وكانت صحته أيضا فى هذه الفترة قد ضعفت عن ذى قبل. خاصة بعد الجراحة التى أجريت له فى عام ١٩٦١.. إذ لم يعد قادرا على تحمل مشقات السفر

---

(١) ما بعد الأيام د.محمد حسن الزيات. مجلة المصور فى ١٩٨٢/٥/٢١.

إلى الخارج لتلقى الدرجة الفخرية من الجامعة ولحضور الاحتفالات التقليدية التى تقام فى مناسبة منحها.. لذلك كلفت الجامعة سفير إيطاليا بالقاهرة "السنيور سورو" بأن يحمل الدكتوراه الفخرية إلى طه حسين فى مسكنه فى رامتان. وقد حمل السفير معه وهو يقوم بهذه الزيارة فى وقتها ترجمة إيطالية للجزءين الأول والثانى من كتاب الأيام.

وفى العام نفسه أعلن الرئيس الراحل عبد الناصر منح العميد قلادة النيل بمناسبة الاحتفال بعيد العلم.. ولم يتمكن العميد من حضور حفل هذه القلادة أيضا لمرضه فأوفد الرئيس عبد الناصر كبير الأمناء إلى "رامتان" ليتسلم العميد هذه القلادة!

* * *

ولسوف نترك المساحة المتبقية من هذه الأوراق للدكتور الزيات الذى يحكى لنا بالتفصيل عن حياة العميد وهو قعيد المرض فى فيلته "رامتان".. على مدى السنوات التى سبقت رحيله عن عالمنا فى عام ١٩٧٣.. وقد ظل ينتظر هذا الرحيل وهو نصف نائم على سريره بحجرته بالدور الأول فى فيلته.

ففى عام ١٩٧٠ يطلب العميد من أمين جامعة الدول العربية الاعتذار عن رئاسة اللجنة الثقافية نظرا لشدة مرضه. ولكن مجلس الجامعة يقرر فى شهر مارس من العام نفسه وبالإجماع تمسكه برئاسة طه حسين للجنة لأن العمل الثقافى العربى بحاجة إلى علمه وخبرته وإرشاداته.

ويقبل عام ١٩٧١. وطه حسين وزوجته وحدهما فى رامتان وكان حريصا مع مرضه على أن يحضر جلسات المجمع اللغوى ولا يتخلف عنها إن استطاع. ولا يزال يقرأ كثيرا. ولكنه لا يملى كثيرا. كما بدأ يستقبل العدد القليل من الأصدقاء والزملاء والتلاميذ الذين يحضرون لزيارته.

وطه حسين بدأ يعتب لأن كثيرا من الكتاب المصريين لم يعودوا يرسلون إليه كتبهم وهو يعلن ذلك فى بعض أحاديثه ويتلقى اعتذارات عن هذا التقصير.

وفى أول عام ١٩٧٢ أسعده أن يعلم أن ابنته وأسرتها فى طريقهم إلى القاهرة. فقد عين زوجها الدكتور الزيات وزيرا للدولة فى وزارة عزيز صدقى. وطه حسين ينتظر لقاء ابنته وأولادها وقد فارقوا مرحلة الصبا.

ثم تعدل الوزارة ويسند إلى صهره وزارة الخارجية. وطه حسين يقول له: "لن تكون لنا وزارة خارجية جديرة بهذا الاسم طالما بقى جزء من أرضنا يعانى الاحتلال..".

*

وتقترب ساعات الوداع أكثر وأكثر.. حيث لم يتبق منها سوى القليل.. وكان لا يعرف مابها من تفاصيل إلا المقربون من العميد. حيث كان طريح الفراش حتى النهاية. وكان لساعات حياته الأخيرة شهود سجلوا لنا انطباعاتهم بصدق، غير الذى تحدثت عنه فى حينه كل الصحف والمجلات المحلية والعربية والدولية.

قال الدكتور الزيات عن هذه الساعات: "فى فجر اليوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٧٣.. بتوقيت نيويورك، وهو يوم رحيل طه حسين طلبنى مدير مكتبى فى وزارة الخارجية بالقاهرة السفير محمد شكرى لينعى إلىّ طه حسين.

كنا فى اليوم الثانى والعشرين من أيام الصراع العسكرى والسياسى الذى بدأ فى العاشر من رمضان، وكان مطار القاهرة مغلقا أمام طائرات المدنيين.. ولكن القاهرة أبلغتنى أن طائرة عسكرية مصرية ستنتظرنى فى مطار روما، فركبناها ولم يكن فيها من الركاب سوى زوجتى وابنتى منى وسواى!.

وتحركت الطائرة، ثم حلقت. وأرسلت البصر من نافذتها إلى حقول إيطاليا جرداء بعد موسم الحصاد، وإلى جبالها وقد ابيضت قممها بعد ابتداء موسم الثلوج، ثم لم أعد أرى. وقد أصبحنا فى سماء البحر الأبيض المتوسط سوى الماء والسحاب..

أغلقت عينى أدعو إليهما بالنوم فلا تستجيب، وتزاحمت على جفنى المغلقتين خواطر الحرب والسلام. كما تزاحمت على جفنى كذلك فى الوقت نفسه صورة من حياة الرجل الذى ينتظر جثمانه فى أحد مستشفيات القاهرة وصولنا لنشيعه.

فأما ما كان يرهق ضميرى فى رحلتى تلك الطائرة من حديث الصراع العسكرى والسياسى، لتحرير الأرض وانتزاع الحق، فله حديث غير هذا الحديث فى مكان غير هذا المكان.. وأما طه حسين فإنى أذكر مقابلتى له آخر مرة لا أنساها.. ذهبت أودعه فى غرفة نومه قبل سفره إلى إيطاليا فى رحلة الصيف المعتادة. واعتذر عن مصاحبته لوداعه بالإسكندرية كعادتى كل عام لانشغالى.. قال لى: ماذا يشغلك، وماذا يفعل وزير الخارجية فى القاهرة وفى العالم العربى؟! وقد مضى على احتلال أراضينا سبعة أعوام. قلت: أما أنا فإنى أردد بيت الشعر الذى تعلمته منك وهو: "ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم".

فسكت لحظة وارتفعت هامته وسأل فى جد شديد: وإذن لا نسافر هذا الصيف؟! قلت: بل تسافر فى حفظ الله، وتعود مستريح الجسم مطمئن النفس والضمير. ساد الصمت ثم قطعه بالسؤال عن عدد الجامعيين الذين تم تجنيدهم فى القوات المسلحة المصرية. وكنت أعرف فأخبرته به.

وفى الثالث من أكتوبر عام ١٩٧٣ تصل الباخرة "أسبريا" إلى الإسكندرية تحمل طه حسين وزوجته عائدين من رحلة الصيف. وفى السادس من أكتوبر يعرف طه حسين أن جيش مصر قد تحدى ما جمع له العدو من قوة لترهبه وتضطره إلى ذل واستسلام وأن جيش سوريا يقوم بنفس التحدى.

وفى يوم قبل رحيل العميد كنت أجلس فى مقعدى بالجمعية العمومية للأمم المتحدة عندما أقبل المستشار عمرو موسى يخبرنى أن الأمم المتحدة قد اختارت طه حسين من بين العشرة الذين ستمنحهم المنظمة الدولية جائزة حقوق الإنسان هذا العام، وأن رئيس الجمعية العمومية سيبرق إليه يهنئه بذلك ويرجوه الحضور فى شهر سبتمبر المقبل إلى نيويورك ليتسلم الجائزة بنفسه. وقد وصلت البرقية إلى مصر وطه حسين يودع الحياة.!

وفى رامتان، فى الدار التى خلت من صاحبها، استقبلت

يوسف السباعى وزير الثقافة. وصوفى أبو طالب وكيل جامعة القاهرة. كان يوسف السباعى يرى أن يبدأ تشييع جنازة الرجل من جامع عمر مكرم، حيث توجد عادة الجماهير التى يمكن أن تشارك فى تشييع الجنازة، ولكنى فضلت أن يبدأ تشييع الجنازة من بيته الذى أحبه.. من جامعة القاهرة.

وتجمع المشيعون فى قاعة الاحتفالات الكبرى فى الجامعة فتمتلىء بجموعهم.. فليس فينا كما يقال موضع قدم.. ويحشد فى موكب الجنازة كل الناس. وحسين الشافعى ومحمود فوزى نائبا رئيس الجمهورية يحاولان استبقاء مؤنس طه حسين -الذى أسرع بالحضور من باريس لتشييع الجنازة فى الصفوف الأولى للمشيعين برغم الزحام الشديد ورجال الدولة فى مصر وممثلو الدول الأجنبية فيها. ثم زملاؤه فى المجمع وفى الجامعات وتلاميذه ومؤيدوه.

ولا يكاد الموكب أن يخرج من جامعة القاهرة حتى تنضم إليه جماهير من الشعب. يعبرون معه النيل من الغرب إلى الشرق ويقفون ألوفا خارج مسجد صلاح الدين ريثما تتم على جثمانه صلاة الجنازة وفى عيونهم دموع لا يخجل منها الرجال.

ويقول رجل عجوز لابنه الشاب. وكلاهما يبكيان: "أنت

يابنى تبكى طه حسين لأنك تعلمت منه وقرأت له وسمعت أحاديثه فى الراديو.. أما أنا يابنى فلم أتعلم منه ولكنى أبكيه لأنه هو الذى مكننى منذ ٢٣عاما من تعليمك..“

* * *

وهذه كلمات أخرى.. سطرتها رفيقة حياة العميد.. السيدة سوزان طه حسين، وقد سجلت لنا فيها.. أخص مشاعرها.. حين عايشت الأنفاس الأخيرة التى خرجت من بين ضلوع العميد.. قبل أن يسلم روحه وتصعد إلى السماء.

قالت سوزان طه حسين.. عن لحظات الرحيل هذه: ”لم يكن يبدو عليه المرض إطلاقا ذلك السبت ٢٧ أكتوبر. ومع ذلك. ففى نحو الساعة الثالثة من بعد الظهر شعر بالضيق. كان يريد أن يتكلم. لكنه كان يتلفظ الكلمات بعسر شديد وهو يلهث، وناديت طبيبه والقلق يسيطر على. لكنى لم أعثر عليه. فركبنى الغم. وعندما وصل. كانت النوبة قد زالت. وكان طه قد عاد إلى حالته الطبيعية. وفى تلك اللحظة وصلت برقية الأمم المتحدة التى تعلن فوزه بجائزة حقوق الإنسان، وانتظاره فى نيويورك فى العاشر من ديسمبر لتسلم الجائزة. وكان الطبيب هو الذى قرأها له، مهنئا إياه بحرارة. غير أنه لم يجب سوى بإشارة من يده كنت أعرفها

جيدا كأنها تقول: "وإيه أهمية ذلك؟" وكانت تعبر عن احتقاره الدائم، لا للثناء والتكريم، ولا للأنوطة والأوسمة والنياشين.

وبعد أن حقنه الطبيب بالكورتيجين، وأوصاه بتناول بعض المسكنات الخفيفة فى الليل، غادرنا وهو يطمئننى أن مريضنا سوف يرتاح الآن. ثم غادرنا السكرتير بدوره فى الساعة الثامنة والنصف. وكذلك الخدم. وبقيت بمفردى معه. كان يريد منى أن أجعله يستلقى على ظهره. وكان ذلك مستحيلا بسبب ظهره المسلخ، وأصغى -وما أكثر ما يؤلمنى ذلك- إلى صوته يتوسل إلى كصوت طفل صغير قائلا: "ألا تريدين؟ ألا تريدين؟".

وبعد قليل. قال: "إنهم يريدون بى شرا. هناك أناس أشرار".

ـ "من الذى يريد بك الشر يا صغيرى؟ من هو الشرير"؟.

ـ كل الناس.

ـ حتى أنا؟.

ـ لا. ليس أنت.

ثم يقول بسخرية مريرة ذكرتنى بسخريته فى أيام مضت:

"إية حماقة؟! هل يمكن أن نجعل من الأعمى قائد سفينة؟".

من المؤكد أنه كان يستعيد فى تلك اللحظة العقبات التى كان يواجهها والرفض الذى جوبه به، والهزء بل الشتائم من أولئك

الذين كانوا بحاجة لمرور زمن طويل حتى يتمكنوا من الإدراك.

غير أنه لم يستمر، بل قال لى فقط، كعادته فى كثير جدا من الأحيان: "اعطنى يدك". وقبّلها .

ثم جاءت الليلة الأخيرة. نادانى عدة مرات، لكنه كان يناديني على هذا النحو بلا مبرر منذ زمن طويل. ولما كنت مرهقة للغاية، فقد نمت– نمت ولم أستيقظ وهذه الذكرى لن تكف عن تعذيبى[1]

ونحو الساعة السادسة صباحا جعلته يشرب قليلا من الحليب، وتمتم بعض كلمات. ونزلت أعد قوتنا. ثم صعدت ثانية مع صينيتى ودنوت من سريره وناولته ملعقة من العسل بلعها.. وبدا لى بالغ الشحوب عندما استدرت إليه بعد أن وضعت الملعقة على الطاولة وهيأت البسكويت، لا تنفس ولا نبض. ففعلت ما كنت أفعله فى لحظات غشيانه العديد، لكنى كنت أدرك أن ذلك كان بلا فائدة، فناديت الدكتور غالى، ووصل بعد نصف ساعة.

وجلست قربه، مرهقة متبلدة الذهن وإن كنت هادئة هدوءا غريبا (ما أكثر ما كنت أتخيل هذه اللحظة المرعبة). كنا معا،

---

(١) معك.. سوزان طه حسين كتاب أكتوبر.

وحيدين. متقاربين بشكل يفوق الوصف. ولم أكن أبكى فقد جاءت الدموع بعد ذلك ولم يكن أحد يعرف بعد بالذى حدث. كان الواحد منذ قبل الآخر. مجهولا ومتوحدا، كما كنا فى بداية طريقنا. وفى هذا التوحد الأخير. وسط هذه الألفة الحميمة القصوى، أخذت أحدثه وأقبل تلك الجبهة التى كثيرا ما أحببتها، تلك الجبهة التى كانت من النبل ومن الجمال بحيث لم يجترح فيها لسن ولا الألم أى غضون. ولم تنجح أية صعوبة فى تكديرها.. جبهة كانت لا تزال تشع نورا، "يا صديقى، يا صديقى الحبيب". وظللت كل الصباح، حتى عندما لم نعد وحدنا. أقول وأكرر القول: "يا صديقى". لأنه قبل كل شىء وبعد كل شىء وفوق كل شىء كان أفضل صديق لى. وكان، بالمعنى الذى أعطيه لهذه الكلمة، صديقى الوحيد.

ما كان من الممكن لهذه البرهة من العذوبة الغامرة أن تستمر. كانت ابنتى فى نيويورك وكان ابنى فى باريس. ولا يمكننى أن أصف المساعدة والعزاء اللذين غمرنى بهما أوائل الذين هرعوا إلى من الأقربين. إن ما غمرنى به ذلك اليوم الدكتور غالى وجان فرنسيس وسوسن الزيات وزوجها ومارى كحيل والأب قنواتى.. كان فوق كل تصور وفوق كل تعبير. لقد حمل محمد شكرى على

كاهله أعباء كل الإجراءات. وعندما قلت له ذلك: "إنى وحيدة تماما" أجابنى بتلك الكلمات: "لا تقولى ذلك. فكل البلد من وراءك" وكذلك بكلمات إن بدت فى ظاهرها قاسية، فقد كانت فى حقيقتها بالغة الجمال: "إنه لم يعد يخصك".

أما القس الشاب الجديد لحى الزمالك، فقد أرسل لى هذه الآيات من سفر أيوب:

"أما أنا فقد علمت أن وليى حى
والآخر على الأرض يقوم
وبعد أن يفنى جلدى هذا
وبدون جسدى أرى الله".

(الإصحاح التاسع عشر "٢٥-٢٦")

ولم يسبق له أن رأى طه. وكان قد قرأ فى لبنان كتابه "الأيام" وتمنى من كل قلبه أن يتعرف إليه. وفكرت أن بوسعه أن يرى هذا الوجه حتى فى سكون الموت. ولقد رآه.

كان هذا الوجه جميلا. ولم يكن له -شأنه شأن جبهته- من العمر ٨٣ عاما! وكانت ترتسم عليه هذه الابتسامة الرقيقة التى كنا نحبها. وكان الشعر الذى بقى كثيفا. يكاد يكون رماديا. أما الجسد، فقد كان يستسلم للراحة بهدوء. كل شىء كان يعبر عن

الصفاء والسلام. ولن تنسى انفعالها عندما كانت تنزع من أصبعه خاتم الزواج لتعطينى إياه، فقد انغلقت اليد التى بقيت لينة على كف صديقتنا، كأنما لتقول لها: إلى اللقاء . ليس من الممكن أن يتصور المرء أنه كان ثمة احتضار، لا، فقد كان اليوم يوم أحد، اليوم الثالث من رمضان، ساعة الفجر، ساعة التجلى الإلهى وإنى لعلى ثقة من أن الله كان يصحبه على هذا النحو دون أن أستشعر ذلك، إذ ما شأنى فيما يجرى بينهما؟

كان من الصعوبة بمكان على ولداى أن يحضرا. كانت مصر منتصرة، لكن الحرب لم تكن قد انتهت، وكان المطار مغلقا. واستطاعت ابنتى وصهرى الذى كان وزيرا للخارجية وكان فى الأمم المتحدة آنذاك، الوصول مساء الإثنين. وأعيد فتح المطار يوم الثلاثاء، ووصل ابنى من عمله فى باريس إلى البيت فى ساعة متأخرة من الليل. وعلمت بعد ذلك أنه لم يجد سيارة يستأجرها، وكان الحزن والإجراءات الإدارية قد أنهكته. فقد أغمى عليه فى المترو، الأمر الذى فوّت عليه الطائرة التى كان يفترض أن يلقى فيها أخته وصهره. "مساء الخير يا أمى". وألمح ابتسامة الحنان والشجاعة على الوجه المنهك الذى تجلى على فى منتصف الدرج حيث كنت أهرول للقائه.

لن أتحدث شيئا عن المأتم. فقد علقت عليه الصحف والإذاعة والتليفزيون مطولا. لكنى سأقول شيئا ما كان يمكن للصحفيين أن يعرفوه. فأمام المسجد، كنت وابنتى أمينة ننتظر فى السيارة انطلاق أولئك الذين كانوا سيذهبون إلى المقبرة. وكان كثير من أهالى الحى فى ذلك المكان ينتظرون أيضا فى صمت عميق. وكان من بينهم، بالقرب منا، صف من الأطفال والراشدين. وكنت أكرر لنفسى: «إنه من أجلهم ما بذل طه من جهود كثيرة . وإليهم إنما كنت أود الحديث ذلك الصباح، وممدت يدى نحو أقربهم، فأذهلته حركتى فى البداية ثم ما لبث أن نظر إلى بابتسامة جميلة وتناول يدى. وسرعان ما امتدت إلى الأيادى: عشرون، خمسون... وفى تلك اللحظة انطلقت السيارة. فتراكضوا على مقربة من بابها وهى تنطلق، وكانت يدى لاتزال خارجها، لعلهم لو انتزعوها تلك اللحظة منى ما كنت لأحس بأى ألم.

***

وإذا كانت رفيقة عمر العميد.. قد حدثتنا عن اللحظات الأخيرة.. من قبل أن يخرج من فيلته فى طريقه إلى القبر.. فسوف يتبقى لنا فى نفس الحديث.. معرفة تفاصيل الصورة التى نقلتها الصحف لجنازته.. التى خرجت بعد ثلاثة أيام من

رحيله.. حيث ظل جثمانه محنطا بثلاجة مستشفى العجوزة. هذه الفترة لحين حضور زوج ابنته الدكتور الزيات وزير خارجية مصر فى ذلك الوقت. الذى كان متغيبا فى الولايات المتحدة الأمريكية. وكذلك ابنه مؤنس الذى قدم من باريس..

ففى أول نوفمبر من عام ١٩٧٣ نشرت كل الصحف المصرية وبالتفصيل ما وقع يوم جنازة الفقيد.. وقالت هذه الصحف فى هذه التفاصيل:

تحولت جنازة عميد الأدب العربى د.طه حسين التى كان مقررا لها أن تكون جنازة رسمية.. إلى وداع شعبى شارك فيه المئات من أبناء الشعب الذين تراصوا منذ الصباح الباكر على جانبى الطريق الذى كان مقررا أن يمر به موكب العميد من تحت قبة جامعة القاهرة وحتى مسجد صلاح الدين بالمنيل. مارا بكوبرى الجامعة.. فقد وقفوا ليودعوا المفكر الأديب.. أول من نادى بأن يكون العلم حقا مشاعا لجميع كالماء والهواء.

وما أن تحرك موكب الجنازة الساعة ١١.١٥صباحا خارجا من قاعة الاحتفلات.. وكان الجثمان ملفوفا بعلم مصر.. وسار طلبة الجامعة الذين ارتدوا زى المقاومة الشعبية. وسار خلفه كبار الشخصيات المصرية من بينهم نائبا رئيس الجمهورية ووزراء

مصريون وعرب بينهم من كانوا تلامذة للفقيد وأساتذة الجامعات ومديريها وبعض السفراء العرب والأجانب.. وكان يتقدم الجثمان أكثر من ١٠٠ باقة من الورود والأوسمة والنياشين، حتى نسيت الجماهير نفسها فأحاطت بالفقيد الراحل وساروا مع المشيعين وهم يكبرون باسم الله ووحدانيته.!

وأما صحيفة أخبار اليوم فقالت: إن طه حسين أوصى بأن يدفن بالقاهرة.. وكان يوسف السباعى وزير الثقافة آنذاك قد طلب من الفنان عبد القادر رزق القيام بتصميم مقبرة عميد الأدب العربى والتى تم بناؤها فى البساتين.

وتوسعت جريدة الأخبار أكثر فى نقل وصف جنازة العميد حيث قالت:

من تحت قبة جامعة القاهرة جرى مشهد الوداع الأخير لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين.. خرج منها جثمانه يحيط به أكثر من ٥٠ ألف فى موكب مهيب، وحوله مئات من باقات الزهور، تتوسطها على كسوة من القطيفة الدرجات والأوسمة والقلادات والنياشين.. ومر جثمان العميد أمام كلية الآداب التى كان أول عميد لها.

وفى مقدمة الجنازة سار نائبا رئيس الجمهورية والوزراء والسفراء ورجال الدين ومئات من الأدباء والمفكرين من مصر والبلاد

العربية.. وفى الصفوف الأولى توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف وهبى والدكتور لويس عوض ويوسف إدريس الذين كانوا يحيطون بالدكتور مؤنس طه حسين وشقيقيه عبدالمجيد حسين ويس حسين.

وفى العاشرة من صباح نفس اليوم كما ذكرت ذلك الصحيفة وصل جثمان العميد إلى جامعة القاهرة من مستشفى العجوزة. وقد رقد هناك لمدة ٣ أيام فى ثلاجة المستشفى.. أحاطت بالجثمان كسوة من الحرير الأخضر، وأخذ مكانه فى مدخل قاعة الاحتفالات الكبرى التى كان لمشيعون قد توافدوا عليها منذ الصباح الباكر.

وفى الحادية عشرة صباحا، تحركت الجنازة من القاعة الكبرى، مارة بحرم جامعة القاهرة، إلى ميدان الشهداء ثم اخترقت كوبرى الجامعة حتى مسجد صلاح الدين، حيث أقيمت صلاة الجنازة على الراحل الكبير.

واستغرق موكب الجنازة ساعة كاملة من الجامعة حتى المسجد، وهى مسافة لا تستغرق سوى ١٠ دقائق سيرا على الأقدام، قبل أن يتم نقل الجثمان إلى المقبرة التى أقامتها الدولة فى البساتين.

وفى برواز فى نفس الصفحة.. نشرت الأخبار.. أن قرينة الرئيس السادات توجهت إلى منزل الدكتور طه حسين فى فيلا رامتان بالهرم، وقدمت العزاء إلى السيدة قرينته وابنته السيدة أمينة قرينة الدكتور محمد حسن الزيات.

* * *